حاجي بابا اصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والثلاثون

الحظ يبتسم في وجه حاجي بابا بك

كانت الهدية الوحيدة التي عدنا بها إلى رئيسنا هي كبشين سمينين ، فلما وصلنا إلى معسكرنا قدمنا نفسينا إلى النائب الذي قدمنا إلى «النازا كشي باشا» وكان إذ ذاك جالساً في خيمته يتحدث مع بعض أصدقائه

قال لشمير بك : « هل جئت بالضريبة أم بالعمدة ؟ ما الذي فعلت ؟ »

قال شمير بك بلهجة عجيبة من التملق لم أتصور أنه قادر على مثلها : « كلا يا سيدي الرئيس لم أجيء بهذا ولا بذاك ، ولكن العمدة أرسل كبشين ليذبحا عند بابك ، ولم يكن عنده غيرهما حتى ولا القوت ، وإذا لم تنجد الحكومة الايرانية هذه القرية بما يكفيها من الطعام فان أهلها سيموتون جوعاً أو سيأكل بعضهم بعضاً »

فصاح الجلاد : « أ هذا هو الصدق ؟ إذا كان عندهم خراف فهل يعقل أنه ليس عندهم نعاج ؟ هل هذا القول معقول ؟ »

قال شمير بك : « إن ظنك صائب يا سيدي الرئيس ولكننا لسنا نتكلم عن الغنم بل عن القمح »

قال الجلاد : « ولكن لماذا لم تتبع الأوامر الصادرة إليك فتأتي بالعمدة وكبار أهل المدينة ؟ أما لو كنت هناك لأحرقت جثث هؤلاء الأوغاد أو لأذقتهم أنواع التعذيب حتى يعترفوا بأن لديهم ثروة مخبوءة »

وقال شمير بك بعد أن نظر إلي مستنجداً :

« لقد كنا نريد أن نأتي بهم وشددنا وثاقهم وضربناهم وعنفناهم وحاجي بابا يعرف كل شيء فقد طلب إليهم أن يدفعوا الضريبة نقداً وإلا فانهم لن يجدوا منا رحمة لأن الرحمة ليست من أخلاقنا، وحذرهم من سطوتك يا سيدي الرئيس قائلا إن شجاعتك لا تعرف التردد ، وقوتك لا تعرف اللين ؛ ولم يزل يصفك أمامهم حتى أغمي عليهم من الخوف »

قال لي الجلاد : « ما الذي أجابوك به يا حاجي بابا ؟ إنني لم أفهم لماذا لم يأت هؤلاء القوم أمامي كما أمرت »

فقلت بمنتهى الخضوع : « وأنا لم أفهم كذلك فان شمير بك هو الذي كان ينوب عنك في هذه المهمة ، وقد تولى الأمر كله بنفسه وقد ذهبت في خدمته فلم يعهد إلي بشيء »

عند ذلك ثارت ثائرة الجلاد وخاطبنا بأشد ألفاظ الاحتقار ونظر إلى أصدقائه وقال : « من الواضح أن هذين الوغدين قد لعبا لعبة هناك .

قل لي يا شمير بك بحق الملح والخبز الذي أكلته في خدمة الشاه ، كم طوماناً أخذت في هذه الصفقة؟ » ثم نظر إلي وقال : « وأنت ياحاجي لم يمض عليك أكثر من شهر واحد في الخدمة فكم طوماناً ربحت ؟ »

حاولنا عبثاً أن نبرئ أنفسنا وأقسمنا أغلظ الايمان فلم نقابل بغير التكذيب. ثم استدعى الجلاد

نائبه وأمره أن يسجننا حتى يأتى العمدة ورجال المدينة فيواجهوهم بنا

ولما صرت أنا وشمير بك وحدنا عرض على نصف ما أخذه قائلا : إنه لم يرد حرمانى ولكنه كان ينتظر عودتنا ثم نقسم الهدية

فقلت له : « كلا أيها الصديق . لقد جاء هذا الجود بعد فوات الوقت وإذا كنت قد شربت من الخمر المحرمة فأصيب رأسك بالصداع فلماذا تطلب إلى أن أصدع رأسى وأنا لم أشاركك فى شربها؟ حسبى من هذه الرحلة أنى تعلمت درساً وقنعت به؛ وشكراً لأنك أنت الذى علمتنى هذا الدرس »

فحاول بعد ذلك أن ينال منى وعداً بمساعدته عند ما نواجه بالعمدة وأن أقسم على صحة ما سوف يدعيه . وبالرغم من تشدده تارة ولينه طوراً فإنى لم أنله هذا الوعد . وقال لى إنه إذا جلد فلن يعيش لأنه اشتهر بالقسوة الشديدة فى جلد المحكوم عليهم وإنه لذلك لا يرجو من الجلادين شيئاً من الرحمة، وأقسم أنه يفضل أن ينكب بأية نكبة على أن يحكم عليه بالجلد

ولما اقترب الوقت الذى سندعى فيه إلى « النازا كشى باشى » لم يوجد شمير بك . وسئلت عنه فقلت : إنه خاف أن يحكم عليه بالجلد ، ولذلك لاذ بالفرار

ولما جئ بالعمدة وأصحابه شهدوا بأنى لم آخذ منهم أى شىء ، وأنى على النقيض من ذلك كنت أحثهم على تقديم هدية ثمينة للنازا كشى باشى وشهدوا ضد شمير بك بأنه ساومهم وقبل رشوتهم

وقد أثرت شهادتهم هذه أثراً حسناً فى نفس النازا كشى باشى . وتداولت سيرتى الألسن فأخذ زملائى ينظرون إلىّ نظرتهم إلى رجل نزيه لا تستخفه المطامع وقال أحدهم : « إن ذلك يرجع إلى كونه طبيباً والأطباء يعرفون الحكمة وهى أغلى من كنوز الأرض »

وقال آخر : « إنه رجل يقدر العواقب فلا يضع رجليه حيث ينبغى أن توضع رأسه »

وصفوة القول أنى اشتهرت بأنى رجل حريص حذر وأنى — بالرغم من كل ما رأيته من المصائب — رجل حسن الطالع موفق الحظ

وكانت نتيجة هذه الشهرة أنى عينت مساعداً لرئيس الجلادين، وهذا منصب كبير الأهمية كما سيتضح للقراء .

الفصل السادس والثلاثون

رقة القلب لا تغيرها طبيعة المنصب

فى ذلك الوقت نشبت الحرب بين حكومة الشاه وبين المسكوف الذين اعتدوا على الحدود الايرانية فى المقاطعة الواقعة بين نهرى خور وأراس ، وهى مقاطعة يحكمها قائد من خاصة أتباع الشاه ، ورتبته فى الجيش رتبة « سردار » فصد هذا الحاكم الجنود الروسية التى اخترقت حدود بلاده؛ ولكنه لم يكتف بذلك بل طارد الأعداء فى بلادهم راغباً فى تحقيق أمل قديم عند الايرانيين وهو الاستيلاء على البلاد الجنوبية من القوزاق حتى مدينة تفليس

وكانت الأخبار تصل يومياً إلى الشاه فى قصر السليمانية كما كانت تصله بين حين وحين رؤوس الضباط الروسيين الذين يقتلهم الجيش الايرانى، فكانت تقابل بحفلات عسكرية لأن استمرار إرسالها كان دليلاً على النصر

وأمر الشاه حاكم مقاطعة أزربيجان بأن يمد السردار بقوة عظيمة من جيشه ليستمر فى غزواته للبلاد الروسية

وفى يوم من الأيام جاء رسول من السردار يقود خمسة جمال محملة برؤوس الروسيين، ولكن يظهر أنه جاء فى الوقت نفسه بأخبار مقلقة لأن الشاه أمر بإرسال حملة يقودها النازا كشى باشى وعدد جنودها مائة ألف ومعه ضباط برتبة بكباشى « قائد ألف » وبوزباشى « قائد مائة » وأونباشى « قائد عشرة »

فى ذلك اليوم أنعم على كثيرين من الجلادين ببعض هذه الرتب واكتظت الطرق المؤدية إلى خيمة القائد بالضباط الزائرين والقادمين على عجل لتلقى الأوامر الخاصة بنظام هذا الجيش

وكانت مهمتى من أصعب المهمات لأننى كانت بقيادة فرقة من الجنود والمرور بها على القرى لتجنيد الشبان من أهلها وتدريبهم على القتال

وكانت هذه المهمة تستلزم نشاطاً شديداً وحركة دائمة ولكن فيها من جهة أخرى نفعاً كبيراً لأنه كان من السهل على فيها أن أحصل على ثروة كبيرة لو أردت ذلك . لكن الرعاية التى استفدتها من حادثة شعير على بك لم تغب عن ذهنى، فعزمت على أن أطفئ نار الطمع بماء الصبر وعلى أن أبقى يدى طاهرة من أموال الناس

وصلت بفرقتى إلى مدينة أربفان قبل وصول الجيش ببضعة أيام وهناك وجدت السردار وكان قد وصل إلى مدينة جافيشلو ولكنه عاد فتقهقر إلى أربفان منتظراً وصول المدد . وفى هذا الوقت وصلت فرقة أخرى من الجيش الفارسى بقيادة ولى العهد إلى مدينة جانجا التى حاصرها العدو

ولما تداول السردار مع نازا كشى باشى يوم وصول الأخير اتفق رأيهما على بث الجواسيس فى الجهات القريبة من الميدان لترقب حركات الروس

وجعلت رئيساً للجواسيس المعينين من قبل نازا كشى باشى وجعل رجل آخر رئيساً للجواسيس المعينين من قبل السردار ولكن القسم الأخير لم يكن له مثل درايتنا بهذه البلاد فكافوا باستشارتى وجعلت فى الواقع رئيساً على الفرقتين، فجمعت الرؤساء حولى بعد صلاة العشاء وألقيت عليهم أوامرى ثم سرت بهم إلى قرية « اشتارك » ومررنا فى أثناء الطريق إليها بقرية ايتشميارك وهى قاعدة البطريركية الأرمنية

وكان وصولنا إلى جسر اشتارك قبيل الفجر ؛ وكنا نسير على الشاطئ الصخرى للنهر بين المرتفعات العالية . وكانت القرية واقعة خلف تلك المرتفعات . وبالرغم من أن نور الفجر لم يكن قد سطع فى هذا الحين فقد كان من فى القرية يستطيعون رؤيتنا بين الآكام المتخلفة عن بقايا الكنائس الأرمنية الكثيرة فى هذه البقعة من إيران

وقد نبهت حوافر الجياد فى عدوها كلاب القرية فأخذت تنبح ونحن لا نزال بعيدين ، فلما ازددنا من القرية دنواً سمعنا رجلاً يقول للآخر : « يا على ! يا على ! ألا ترى شبحاً أبيض بالقرب من الكنيسة ؟ »

وأشار إلى مكاننا

فأجابه الآخر : « نعم هذا هو الغول الذى اعتدنا رؤيته فى هذه الساعة . إنه يبحث عن جثة ليأكلها »

مررنا فى الطريق ونحن نسمع هذين الرجلين

وغيرها يستعيذون بالحسين وبالأئمة وبالنبي وبعلي . وعلمهم أحد الموجودين آية ، قال : إنهم إذا تلوها هرب الغول . فتلوها ولكنهم ما زالوا يرون شبحاً غامضاً ، فأكد ذلك الرجل أن الشبح لو كان غولاً لاختفى بعد تلاوة الآية الشريفة ، وقال وهو يعدو بجواده : انتظرونى حتى أراه وأخبركم بحقيقته

وجرى فى غير اتجاهنا ثم عاد يقول : إن الذى كانوا يحسبونه غولاً لم يكن إلا امرأة على وجهها نقاب أبيض وهى تحاول الاختفاء فى أنقاض كنيسة أرمنية

عرفت أنهم لم يكونوا ناظرين إلينا . وذهبت إلى المكان الذى أشار إليه لأرى تلك المرأة ذات النقاب الأبيض لعلها ذات صلة بالمهمة التى نيطت بنا وأمرت رجالى أن يتبعونى عن بعد

وجدت فى ركن بين جدارين مهدمين من هذه الأنقاض امرأة يظهر من اصفرار وجهها أنها مريضة وكان معها رجل ، وكلاهما فى مقتبل الشباب ؛ والفتاة جميلة فاتنة والفتى قوى تبدو عليه مخايل القوة والنشاط والرجولة ، وهو يحمل إلى جنبه سيفاً ولاحظت أن ثياب الفتاة ويديها مخضبة بالدم ، وعرفت أن الرجل ليس عدواً لها لأنه كان يضمد جراحها ويواسيها . وبالرغم من أن عملى ومهمتى كانا يستلزمان قسوة فى القلب فقد أخذتنى رحمة بهما واحترمت حزنهما وقلت : « ما الذى تفعلانه هنا ؟ وإذا كنتما غريبين فلماذا لا تذهبان إلى القرية ؟ »

فقال لى الشاب : « إن كنت رجلا ذا قلب فاحم هذه الفتاة ؛ وإذا كنت مرسلا من قبل السردار لاعتقالى فانى لن أقاوم ولكن الفتاة تحتضر فارحمها »

قلت له : « من أنت ؟ إن السردار لم يقل لنا شيئاً بشأنك . من أين جئت ؟ وإلى أين تريد الذهاب ؟ »

فقال لى الشاب : « إن قصتى طويلة محزنة ، فاذا ساعدت على نقل هذه الفتاة المسكينة إلى حيث تأمن وبعنى بأمرها فسأقص عليك قصتى . وهى مصابة بجراح شديدة ولكنها ستشفى منها إذا سادفت عناية . أحمد الله على أنك لم تكن من جنود السردار وأرجو أن تعطف علىّ لأنك ستجد بعد أن تسمع قصتى ما يحملك على مساعدتى وإنقاذى

لم أكن فى حاجة إلى استجدائه رحمتى لأننى أشفقت عليه وعلى المرأة التى معه ساعة وقع نظرى عليهما وقلت له إننى أجيب مطلبه فيما يتعلق بالفتاة وإننى سأخبره عن رأيى فيه بعد أن أسمع قصته

ثم ساعدته على تضميد جراح الفتاة وأمرت واحداً من جنودى بأن يترجل عن جواده وحملناها عليه وأخذناها إلى القرية ثم درنا على منازل أهلها حتى توسمنا فى أحدهم المروءة والانسانية فعهدنا إليه بعلاجها ووجدنا من الرجل قبولا حسناً وشهامة ، وقابلتنا زوجته فقالت إنها تسر من أداء هذه الخدمة فى علاج المريضة ، وعلمت من ذلك الشاب أن صاحبى المنزل أرمنيان مثله ومثل المريضة التى معه وأنه مسرور لذلك فهو لم يكن يتوقع أحسن منه

الفصل السابع والثلاثون

يوسف الأرمنى وزوجته مريم

كان فى عزمى الذهاب إلى مرتفعات أبيران حيث الهواء بارد طلق وحيث المرعى معشب خصب صالح للجياد ، ولكننى علمت أن قبائل الرحل التى كنت أحسبها معسكرة فى مكان معين قد انتقلت

إلى تلك المرتفعات وما يليها من الجبال خوفاً من الحرب الناشبة، فعزمت على أن أظل فى أشتاركا حتى تخف حرارة النهار

وانقسم رجال فذهبوا إلى أجزاء مختلفة فى المدينة فذهب البعض إلى جهة الجسر ليطعموا جيادهم من الحشائش الطويلة النابتة على الشاطئ، وذهب فريق آخر إلى طاحون بجانب النهر ليستظلوا وللغرض السالف أيضاً . وجلست فى غرفة من أنقاض إحدى الكنائس قائمة على قمة عالية لأشرف على المنظر كله ولأرى أى شبح يبدو من جهة الحدود الروسية

وقد أثر الهواء الطلق فى نفسى فنمت ساعتين ثم قمت فاستدعيت الشاب الأرمنى وطلبت إليه أن يقص على قصته خصوصاً ما كان متعلقاً بمجيئه مع السيدة إلى هذا المكان الذى قابلتهما فيه

وكانت القوة والحياة قد ظهرتا على وجهه وتبينت من مخايل النبل البادية عليه أنه لم يقل غير الصدق وهذا هو مجمل القصة على لسانه :

« أنا أرمنى المولد مسيحى الدين واسمى يوسف وكان أبى رئيساً لمدينة جافيشلو التى أكثر سكانها من الأرمن وهى قرية من مجرى نهر « بجباكي » وتبعد عن هذا المكان ستة فراسخ وحول هذه المدينة أراض خصبة مزروعة وهى غنية بمحصولاتها جميلة المناخ هادئة السكان

وكنا كسائر أهلها سعداء على فقرنا بما رزقناه من جودة الصحة ومنا فريق يسكن فى الجبال خوفاً من مظالم الحكام الذين لا ينجو من بطش أيديهم كل أهل المدن

وعاداتنا كلها بسيطة ونظام حياتنا دينى بحت ولى عم من الأساقفة فى بطريركية ايتشميازين، وخال وهو قسيس القرية ، ومن أجل ذلك أراد والداى أن يجعلانى قسيساً

ولما بلغت العاشرة من العمر أرسلت إلى الكنيسة لأتعلم الكتابة والقراءة وأصول الدين وكان فى الكنيسة كتب كثيرة أخذت أقرؤها واحداً بعد واحد حتى أصبحت القراءة أحب عاداتى وألزمها ؛ وصرت أشترى كتباً من أنواع مختلفة فلا أسترح منذ يصل إلى كتاب حتى آتى على آخره

وكانت أكثر هذه الكتب دينية، ولكننى قرأت بعض كتب التاريخ الأرمنى فتنبه إحساسى بعاطفة الوطنية وعرفت أن بلادى كانت أمة وكان لها ملوك اضطروا العالم إلى احترامهم؛ وتأملت فى حالتنا اليوم فحزنت ووددت أن يتاح لنا من يبث بيننا الدعوة ويجمع شملنا للتخلص من نير الحكم الأجنبى وشغلنى العزم على أن أعمل نحو هذه الغاية عن الواجبات الدينية التى كرست حياتى لها باعتبارى قسيساً

وفى هذه الأثناء نشبت الحرب بين روسيا وبين فارس وكانت بلادنا فى وسط ميدان القتال لوقوعها على الحدود فانتقلت من الكنيسة إلى قريتى لأكون بين أهلى الذين وجدتهم شديدى الخوف والقلق بسبب هذه الحروب لأن كلا الفريقين المتحاربين (فارس وروسيا) جدير بأن يخاف

ولم تكن نتيجة الحرب لتفيد إحدى الدولتين فائدة كبرى ولكنها كانت شديدة الضرر علينا ، لا لخوفنا من القتل فقط بل لأن الجيوش المحاربة من الجانبين كانت تفسد علينا زراعتنا فتسلب الناضج من الحبوب وتطعم جيادها بما لم ينضج بعد

وكان الفلاحون معرضين دائماً للاعتقال والأسر؛ ولما خشينا أن نموت من الجوع بسبب هذا الاعتداء

على المزارع وصلنا الليل بالنهار فى خدمة الأرض لنعوض ما فقدناه، ولكن فلاحينا كانوا يخرجون إلى الحقول والفؤوس فى أيديهم والسيوف إلى جنوبهم والبنادق محشوة بالبارود معلقة على ظهورهم، وكنا كلما رأينا أجانب مقبلين نحونا نجمعنا وأظهرنا استعدادنا للدفاع

وبقينا على هذه الحال عدة أعوام استطعنا فيها أن نحتفظ باقوت بالرغم من القليل الذى كان يؤخذ على الرغم منا

ومنذ عامين ذهبت فى جملة من ذهب إلى الحقل من أبناء قريتى لمراقبة الحصاد عند جنيه كالعادة حاملا بندقيتى وسبقى فرأيت جواداً يعدو وعلى ظهره رجل فارسى ووراءه فتاة أسيرة

وعندما وقع نظر الفتاة على صاحت مستجيرة مستنجدة فركبت جوادي وركضت نحو الفارسى شاهراً سيفى فى وجهه فلم يستطع الرجل بالنظر لوجود المرأة خلفه أن يجرد سيفه ويهاجمنى فاختار أن يسرع حتى يفر منى، ولكننى أسرعت فأطلقت من بندقيتى رصاصة فى الهواء ففزع جواده لأن الرصاصة كانت قريبة من عينيه وشب فصرخت الفتاة المردفة خلف الفارس وسقطت عن الجواد

وكان الرجل فى هذه الحالة يستطيع أن يقاتلنى إما بالسيف أو بالبندقية ولكنه وجد بندقيتى مصوبة نحو رأسه فرأى القرار أسلم ونجا بنفسه؛ وذهبت إلى تلك الفتاة التى كانت منقبة فساعدتها على الوقوف ووجدتها جريحة لسقوطها عن الجواد

وبعد إسعافى لها وتأكدى من أنها لم تصب بكسر أو رض تبينت أنها أرمنية مثلى ووجدتها أجمل شيء وقع نظري عليه وهى لا تتجاوز الخامسة عشرة من العمر. وإذا نسيت شيئاً فان أنسى شعورى بالحب وبالسرور وبالشفقة ساعة أبصرتها وأحسست بأن مشاعرى فى هذا الحين جديدة كلها ونسيت كل ما كان لى فى الحياة من غاية أو غرض إلا السهر على ما فيه خير هذه الفتاة ورضاها

وجرت أول كلمات قالتها الفتاة فى مجرى دمى من العروق ثم بكت بكاء شديداً أخذت بعده تمالك نفسها شيئاً فشيئاً

ولما علمت أننى من أبناء جنسها وأبناء دينها وذكرت أننى منقذها أخذت تشعر نحوى شعوراً مختلفاً، وأملى على غرورى أن إحساسها نحوى كان مثل إحساسى نحوها

وشجعنى هذا الغرور على أن أكشف النقاب عن وجهها وكان ذلك منى جريمة لم تغتفرها الفتاة لأن الفتيات الأرمنيات يحتفظن به كل الاحتفاظ أمام الأجانب فهن ويعدون السفور فضيحة منكرة

ولما رأيت غضبها وقفت أمامها وقوف المجرم ولكننى اعتذرت بأن وقوعها عن ظهر الجواد قد حبس أنفاسها وبأنه لولا نزع هذا النقاب عن فمها رأنفها لاختنقت، لكن هذا الاعتذار لم يصادف قبولاً عندها. ولم يكن فى استطاعتى إقناعها بأن رؤيتى وجهها كله أمام هذه الضرورة لا تعنيها ولا تلحق بها عاراً لأن ذهنها كان ممتلئاً بهذه الفكرة، ثم أقسمت لها بأن رؤيتى إياها ستبقى سراً أكتمه ما دمت على قيد الحياة، فاطمأنت وتعزت ثم طلبت إليها أن تقص قصتها على وتخبرنى عن الرجل الذي كان من حسن حظى أننى أنقذتها من بين يديه فقالت: «إن كل ما أعرفه عن الرجل أنه فارسى

ولم أره قط قبل هذه المرة ولم يختطفني إلا لكي يبيعني في سوق الرقيق

ومنذ أيام قليلة حدثت موقعة بين الفارسيين وبين القوزاق، فطرد الفارسيون القوزاق من قرية أريتان وهي القرية التي أنا منها وابتهجوا بذلك ابتهاجاً عظيماً، وصار الفرس ينقلون النساء القوزاقيات ويرسلونهن إلى البلاد الأخرى ليبعن في أسواق الرقيق . ويظهر أن الوغد الذي اختطفني أراد بيعي على أني قوزاقية

ذهبت في الصباح كالعادة لأملأ إناء من البئر فلقيني وشرع في وجهي سيفاً وهددني بالقتل إذا لم أتبعه حيث شاء دون أن أحدث ضجة فأطعته مكرهة وأركبني جواده

وكان الفتيات في ذلك الوقت ينصرفن فذهبن إلى المدينة ركضاً واعتمدت على الضجة التي سيحدثها هؤلاء الفتيات بعد عودتهن . ولكنه لم تمض بضع دقائق حتى كنا بعيدين عن المدينة بسرعة الجواد بين النجاد والوهاد التي يقل فيها مرور الناس، وكنت أنت أول إنسان رأيته واستنجدت به على الرغم من طول المسافة التي قطعناها »

لم تكن الفتاة تصل إلى هذا الحد من قولها حتى بدا لنا عدة أشخاص أحدهم على ظهر جواد والباقون مشاة، وكانوا مقبلين نحونا على جناح السرعة وقد عرفتهم الفتاة عند ما رأتهم فتهلل وجهها استبشاراً وصاحت : « هذا أبي وإخوتي أوفان وأغوب وأرتوان ومعهم أعمامي أيضاً »

وكنت أخشى أن يكون في الأشخاص المقبلين أحد يستميل عطفها عني ولكنني حمدت الله إذ لم يكن فيهم غير الأقارب

ولما دنوا أعربوا لها عن ذعرهم لما علموا أمر اختطافها وقالوا إنهم يحمدون الله إذ لم يضلوا الطريق

وبعد أن وصفت لهم كيفية اختطافها قالت في حياء واضطراب إن الفضل في نجاتها يرجع إلي. فاتجهت إلي عيونهم وبدا عليهم الاهتمام بمعرفة حقيقتي وقال لي أبوها : « من أين أنت يا بني ؟ »

قلت : « أنا ابن رئيس قرية جاقيشلو »

فأجابني : « أنت إذن ابن صديقي وجاري ولكنني لم أرك من قبل . لعلك الطالب الذي كان يتعلم في الكنيسة ثم عاد بعد نشوب الحرب لمساعدة أهله ؟ »

قلت : « نعم أنا هذا الطالب » فرحب بي ودعا لي وقال إنه وأسرته مدينون لي بالشيء الكثير، وأصر على أن أذهب معه لأكون في ضيافته ، وقال : إن أبناء أسرته يسرون بأن يحملوني على رؤوسهم ويقبلوا قدمي لانقاذ صريم من البيع في سوق الرقيق فتصبح طول عمرها في أسر المسلمين »

ثم حياني أعمامها بكلمات رقيقة وألحوا على أن أرافقهم إلى القرية فلم أستطع مقاومتهم لشدة تأثري بما أبدوه من العطف ولأنني كنت أريد أن أرى صريم في دارها فقبلت الدعوة وسرنا جميعاً إلى قريتهم

ولما وصلنا إلى تلك القرية وجدنا النساء والأطفال عند بابها منتظرين عودة صريم مع من ذهبوا للبحث عنها . ولما رأوها تعود معهم أبدوا من مظاهر الفرح ما ليس في وسع كاتب أن يوفيه حقه من الوصف .

وأعيدت على مسمعهم قصة اختطافها وإنقاذها

وبمثل سرعة البرق انتقلت القصة من فم إلى فم وزيد عليها من المبالغات ما لا بد منه في مثل هذه الحالة ، وكان مجمل القصة كما رويت المرة الأخيرة : أن شيطاناً ذا رأس من الحديد وحوافر

كوافر الخيل ومخالب كمخالب الأسد اختطف الفتاة فوضعها على جواد من جياد النار ينهب الأرض فى قفزه ، ويكاد يبلغ السماء بوثبه ، وجرى بها فراسخ وأميالا ، فهبط من السماء ملاك من ملائكة الرحمة وامن الشيطان لعنة حاقت به ، فغلت يده وأخرست لسانه وأنقذت الفتاة من مخالبه بعد أن أحالته رماداً. ومازال هذا الملاك الحارس يحمى الفتاة حتى وصلت إلى أهلها . ثم أشير إلى وقيل : إننى هذا الملاك . فاتجهت إلى عيون أهل القرية جميعاً . ولكن حدث لسوء الحظ أن فتى من الزارعين كنت أراه كثيراً فى الحقل نظر إلى وقال لأهل القرية : إننى لست ملاكا ، ولكننى يوسف بن رئيس قرية جافشيلو ، فعدت فى نظرهم إنساناً هالكا كما كنت . ولكننى مع ذلك ظللت أعامل معاملة ممتازة عن التى يعاملها سائر الناس خصوصاً من أهل مريم الذين لم يتركوا وسيلة إلا أعربوا بها عن شكرهم وعن عجزهم عن إظهار كل ما تكنه جوانحهم نحوى من الشكر وعرفان الجميل

ولكننى لم أعد أبصر مريم مرفوعة النقاب ، فقد مضت تلك اللحظات الهنية التى مليت فيها بحسنها ، ولكننى قلت فى نفسى إن هذه الصلة لن تنقطع بل ستعود وستبقى مستمرة طول الحياة، ولن تكون فى الحياة قوة تستطيع الفصل بينى وبينها . إننى لم أكن أعرفها ولم يكن بينى وبينها أية علاقة؛ فالقوة التى ساقتنى إليها وساقتها إلى قوة مريدة رأت جمع حظى وحظها والتوثيق ما بين نفسى ونفسها . ولو أن هذه القوة كانت تريد غير ذلك لتركت الفارسى الذى اختطفها يذهب بها إلى حيث شاء . وبالرغم من أن حديثى مع مريم كان قصيراً فقد كان الحديث الذى دار بين عينى وعينيها طويلا ممتعاً يدل على أن شعورها نحوى مثل شعورى نحوها . وبلغ بى الزهو إلى حد تمنيت معه لو أن الفارسى الذى اختطفها وأنقذتها منه كان عشرين فارساً ليكون لى حق المفاخرة والتباهى ، ولكننى عدت فذكرت أننى لست إلا أرمنيا حقيراً من شعب حقير وأننى لست من القوة بحيث يحق لى أن أتمنى هذا التمنى . وحسبى أن أطرد الذئب عن أغنامى

أمضيت طول هذا اليوم فى قرية « جلكو » وهى القرية التى فيها أهل مريم . وأقيمت لى وليمة ذبح فيها كبش سمين ودعى كثيرون من الأصدقاء والأهل . .

وفى اليوم التالى عدت إلى أبوى اللذين أزعجهما غيابى عنهما واللذين أنصتا إلى قصتى بكل ما كنت أرجوه من الاهتمام، وكان اشتغالى بهذا الحب أكبر من أن يسمح لى بالتفكير فى أى شأن آخر وقلت لهما : « إننى بفضل الله وفضلكما أصبحت قوى الذراعين وبلغت من العمر ما يحق لى معه أن أنفرد بالنظر فى أمر نفسى وأريد أن أتزوج وقد هيأت لى العناية الالهية طريق الزواج »

ثم طلبت إليهما أن يخطبا مريم من أبويها ثم قبلت يدى والدى ووالدتى ، وكان جوابهما أن الزواج أمر كبير الأهمية خصوصاً فى هذا الزمن الصعب، وأن الأسرة فقيرة لا تستطيع القيام بنفقات الزواج، وأنه من الضرورى شراء ثياب وخاتم وشمع وحلوى وفراش وأغطية للفراش واستئجار مغنين والدعوة إلى وليمة ، وأن كل ذلك يتطلب من المال مالا يوجد منه شىء .

قلت : إن هذا كله صحيح ؛ فالمال غير موجود

والزواج لا يحسن أن يتم بغير هذه التكاليف محافظة على كرامة أسرتي وإظهاراً لتقديري أسرة العروس. ولكن في وسعي أن أقترض لأن لي أصدقاء في الكنيسة وسأعمل بجهد مضاعف حتى أتمكن من الوفاء ولن أعيش عيشة المسرفين حتى لا يصبح وفاء ديني مستحيلاً .

وقلت لهما إن في عزمي الاشتغال في خدمة واحد من النجار والسفر معه أو عنه إلى الاستانة أو استرخان ، وفي كسب هذا العمل ما يقوم بنفقاتي ويفي ديوني .

وبجمل القول أنني أقنعت والدي بمقدرتي على الكسب وعلى تحمل مسئوليات الزواج وقد وعداني بأن يخطبا مريم من أبويها . وتحدد يوم قريب لسفر أبي وعمي القسيس ورجل من المتقدمين في السن من أهل القرية — إلى قرية « جوكلى »

وفي نفس هذا اليوم ذهبت إلى تلك القرية متحللاً سبباً من الأسباب حتى لا تفاجئ هي وأهلها بهذه الخطبة

وقد استقبلت أسرة الفتاة رجال أسرتي أحسن استقبال، وفتح باب الكلام في هذا الموضوع فأبدى أهلها رضى واغتباطاً، وانتهزوا هذه الفرصة فقدموا لضيوفهم أكثر مما اعتادوا شربه من العرق ، وهو الشراب المفضل عند الأرمن؛ وتم الاتفاق على إتمام المراسيم الشرعية للزواج بعد أن يتم الجهاز

وبعد ثلاثة أيام ذهبت أمي وثلاث من نساء القرية وخالي القسيس إلى جوكلى فكان استقبالهم أحسن من الاستقبال الأول وتم الاتفاق معهم على جانب آخر من التفاصيل وعرضت أمي بالنيابة عني أن أقدم للعروس كيت وكيت من الثياب وكذا وكذا من المصوغات ومناديل لليد وأخرى للرأس وجوارب وحذاءين وسلسلة ذهبية للعنق وخمسين قرشاً فارسياً للمصاريف النثرية وأن يكون سلسلة العنق طومان فارسي .

وبعد أن استشار أهل العروس بعض صواحبهن قبلن ما عرضته أمي ، ولكن عجوزاً فيهن كانت خادمة في بيت من البيوت الايرانية اقترحت اقتراحاً أثار المناقشة وهو أن أقدم مقداراً من المال لا يتفق على تحديده وإنما يترك لاختياري جرياً على العادة الايرانية

فقالت أمي : إن هذه العادة ليست من عوائد الأرمن ولا يحسن بنا اتباعها . وقد أدت المناقشة إلى ارتفاع الصوت في المخاطبة من الجانبين بالرغم من تأكيدي على والدتي ألا توجد أو تعين على وجود شيء من المصاعب . ثم وقف البحث في ذلك إلى مقابلة أخرى مع الرجال

ودعيت وخالي فذهبت، وقد نصح لي الأصدقاء ألا أضحك أو أبتسم في أثناء الحديث لأن ذلك يعتبر عند الأرمن فألا سيئاً على الحياة المقبلة

ذهبت فوجدت أمي ومن معها وأمامهن أم العروس وإلى جانبها صواحبها . ودخلت مريم في اللحظة التي دخلت فيها فقدمت أمي لها خاتماً (وكان لسوء حظي من النحاس) فوضعته في أصبعها وقدم النبيذ إلى القسيس فشرب جرعة منه وقال : إن الخطبة أصبحت معقودة بين مريم وبيني وهنأنا الحاضرون فكان سروري عظيما بقبول هذه التهنئة . ورأيت على وجه خطيبتي كل علائم السرور والفرح وربما كنا أسعد المتزوجين في هذه الساعة التي تم فيها عقد الخطبة

ثم عادت أمي ومن معها إلى القرية ، وبقيت للاتفاق على سائر المسائل التي لم يكن تم الاتفاق عليها . وعزمت على أن أجيب بالقبول على كل ما يطلب مني مهما كان الغلو فيه والسرف

ولما تكلمنا عن المال وجدت جملة ما يطلب مني على أجزاء قد بلغت مبلغاً معضلا فوافقت وأنا أفكر في اقتراض البقية من شخص آخر غير الذي أزمعت الاقتراض منه إلى حد معين

ولكنني دهشت عند ما رأيت أبي يخرج من جيبه كيساً من النقود ويقدمه لأهل العروس ويناولني عشرة طومانات وهو يقول لي : « إن رئيس قرية جافشيلو لا يضن على ابنه بشيء في يوم عرسه . خذ هذا يا يوسف وقدمه لزوجتك زيادة على ما اتفقتم عليه »

عند ذلك لم يسعني إلا السجود وتقبيل يديه

وتأثر عمي من موقف أبي وموقفي فباركني وقال لي : « إن الكنيسة الأرمنية فقيرة وإن رجالها أشد فقراً ؛ ولكن خذ هذا واشتر به شمعاً لعرسك » وأعطاني عشرين عباسية فضية

وكذلك فعل سائر أقربائي حتى لم تعد ضرورة تدعو إلى الاقتراض ؛ وزاد عندي من المال ما يكفي للانفاق مدة بعد القيام بكل النفقات المطلوبة. فشكرت لهم وعزمت على السفر إلى إيفان وهو المركز الذي تتبعه القرية لكي أشتري منه الثياب اللازمة

لكنني كنت أجهل فني البيع والشراء خصوصاً ما كان متعلقاً بثياب النساء ، فعزمت على أن آخذ معي أمي وأن أركبها حماراً وأن أسير على قدمي . ولكن المسافة كانت بعيدة ولا بد من النوم ليلا في أثناء الطريق فاعتمدت على أن أجد مصادفة في أثناء الطريق بعض رجال القبائل الراحلة فننام في خيامهم

وقد اشتهرت هذه القبائل بكرم الضيافة على الرغم مما هو معروف عنها من الشر والميل إلى النهب والسلب

سافرت وكانت أمي على ظهر الحمار وكنت أسير على قدمي والبندقية على ظهري والسيف إلى جنبي

فلما وصلنا إلى مرتفعات أبيران وجدنا خياماً كثيرة بيضاء وفي وسطها خيمة كبيرة حسنة الشكل هي خيمة الزعيم . وأخبرنا فارسي قابلناه في الطريق أن هذه خيام سردار إيفان وجنوده وقد عسكروا هنا استعداداً للحرب مع الروس

أزعجنا هذا الخبر ورأت أمي أن تعود إلى قريتنا وأن تؤجل الزواج الآن . ولكن حبي كان أكبر من أن يسمح لي بالاصغاء إلى مثل هذا الرأي فحثثتها على الاسراع حتى نتمكن من العودة سريعاً . وأسرعنا في اليوم الأول حتى بدا لنا في نهاية هذا اليوم دخان إيفان

وقضينا الليلة تحت صخرة بارزة واستأنفنا السير في فجر الغد فوصلنا إلى إيفان آمنين

وذهبت أمي لشراء الملابس في يوم وصولنا؛ أما أنا فتجولت في الأسواق مصغياً لأحاديث الذين يسيرون فيها فسمعت إشاعات كثيرة عن الحرب وعن المواقع التي ينوي السردار أن يقوم بها ضد الروس . وظهر لي أن هذه الحرب ستكون من أشد الحروب التي اشتركت فيها فارس لأن عمال الذخيرة كانوا يواصلون الليل بالنهار في صنع قنابل من نوع لم يسبق صنعه في البلاد الفارسية

وخطر لي خاطر كدت أبدأ في تنفيذه وهو أن أطلب بواسطة الكنيسة من السردار أن يحمي قرانا

الأرمنية . ولكن قليلا من التفكير حملني على العدول عن هذا الخاطر وقلت إن حماية الله وسيوفنا خير من حماية السردار وجنوده

وعدت أنا وأبي من نفس الطريق الذي ذهبنا منه ولكننا كنا أبطأ في السير لعدم الحاجة إلى السرعة ولأنني كنت أحمل عبئاً ثقيلاً من الثياب . ولم يحدث لنا أي حادث يستحق الذكر حتى وصلنا إلى مرتفعات جافيشلو فرأت أبي خيمة فأشارت إليها وسألتني عنها ولم أكن إذ ذاك أفكر في أي شيء غير العرس ومعداته فكان جوابي لها : « لعل أهل العروس سيقيمون لنا مأدبة في هذا المكان »

قالت : « ما هذا القول يا يوسف ؟ هل جننت ؟ يظهر أن الروسيين قد احتلوا قريتنا » فلم أجبها

ولما وصلنا إلى القرية وجدت ظنها كان صائباً فان فرقة صغيرة من الجنود الروسية قد احتلتها وألزمت كل أسرة في المدينة أن تقدم الطعام لواحد من الجنود . ولما كانت أسرتنا أسرة الرئيس فقد كان ضيفنا هو قائد الفرقة ؛ ولقد كان من سوء حظي حدوث ذلك في وقت العرس ، وقد شكوت أمري إلى بعض أصحابي في جوركلي التي لم يكن الروسيون قد احتلوها ولكن أهلها شاركونا خوفنا لما علموا بما حدث عندنا

وقابلت مريم بالرغم من أن عوائدنا لم تكن تسمح بالتحدث معها في الفترة ما بين الخطبة والزفاف ، ولكن الحب يغلب كل عادة ويتغلب على كل المصاعب

قابلتها وتحادثت معها مراراً وكنت على وشك الجنون من حدوث هذه الحوادث التي من شأنها تأخير زواجنا . وكانت القرائن كلها تدل على قرب حدوث نكبة عظيمة لأن الجيشين المتحاربين كانا قريبين . وكان من المنتظر أن تدور رحى الحرب فوق رؤوسنا

وكان صبري يقل في كل يوم وحبي يزداد ولكنه كان من المحال إتمام الزواج في هذه الظروف ولذلك كان علي أن أصبر على كره مهما كلفني الصبر

مضى أسبوعان من يوم عودتنا ولم يحدث حادث جديد وكانت علاقتنا بضيوفنا الروسيين حسنة جداً . وكانت الروابط التي تربطنا بهم كثيرة فهم مسيحيون مثلنا ينادون عند الفزع الاله الذي نعبده ويشكرون عند النصر الذي نشكره ويصلون في الكنائس التي نصلي فيها ويشربون معنا الخمر ويجالسها كما يعلم شاربوها تقوى الروابط

وكان قائد الفرقة الروسية شاباً حسن الأخلاق شديد الرغبة في معرفة أحوالنا وعوائدنا كثير الميل إلى محادثتنا في كل موضوع نحب أن نتحدث فيه . وقد كلمته في موضوع زواجي فأصغى إلى باهتمام شديد ووجدت فيه صديقاً صادقاً . وكان مما قاله لي : « ولماذا تؤخر الزواج ؟ اقبل نصيحتي وتزوج الآن فاننا إنما جئنا لنحميكم ولم يظهر الفارسيون إلى الآن ما يدل على أنهم سيقدمون خطوة واحدة

ووعدني فضلا عن ذلك بأن يقدم لعروسي هدية هي عقد من الذهب الروسي وبأن يعيرني جواده لأركبه في يوم الزفاف ولم يكتف بحديثه معي بل حادث أهل العروس في هذا الموضوع فأقنعهم بتعجيل الزواج وتحدد يومه بواسطته . ولقد كان اهتمامه الشخصي باتمام هذا الأمر يكاد يثير ريبتي ويحملني على النفرة منه لولا أنه كان قبيح الوجه إلى درجة عظيمة فلا خوف من أن تميل مريم إليه لأنه خير لها أن تحب قرداً بدلاً من أن تحب ضابطاً كهذا

وذا وجه كبير العظام وحجرتين عظيمتين فى مكان عينيه ، كبير الأنف أفناه ، هيئة وجهه كهيئة البومة ، وكانت شفته العليا غليظة وفكه الأسفل صغيرا وذقنه رفيعة محدبة

قلت فى نفسى : « محال أن تحب مريم مثل هذا الوجه وهى أشبه بأن تحب عملاقاً فارسياً من حبها مثل هذا الرومى

ثم وازنت بينهما وبين نفسى فأرضيت غروري بأن قلت إننى أجمل منهما وإنها لن تحب غيرى

قبل الزفاف بليلة أرسلت الثياب وغيرها من الهدايا إلى قرية العروس فى موكب يتقدمه الموسيقيون وهم يكثرون فى كل مدينة وكل قرية ، وقد أعارنا الضابط الروسى طبلة من طبول الجيش زيادة فى إكرامنا

وبعد إرسال الهدية بساعات قليلة ذهبت إلى تلك القرية لكى آخذ الهدية التى تهديها العروس وفقاً لعوائدنا

وكانت هديتها لى مسدسين مصنوعين فى القوزاق وقد كانا مملوكين من قبل لأحد أعمامها وهو ضابط فى جيش الوالى الفارسى لتلك الولاية قبل أن يستولى عليها الروس

وفى اليوم التالى وهو الذى كنت أعده أسعد أيام حياتى وكنت أنتظره بصبر نافد استيقظ كل أقاربى مبكرين . وكان الجو ينذر بهبوب عاصفة والسماء ملبدة بالغيوم ، ولكن الهواء كان معتدلا نقياً لأن المطر الذى هطل فى الليلة السالفة نقاه وطهره . وأرسل إلى صاحبى الضابط جواده فى ذلك اليوم ولبست ثيابى الجديدة وتحليت بكل ما أملك من الجواهر والمسدسات وعلب الخرطوش وسار معى أصحابى من الأرمن والضابط الروسى ، وكانت الموسيقى أمامنا تعزف بألحانها الجميلة . ولما وصلنا إلى منزل العروس أديرت علينا المرطبات ووفد علينا أهل القرية جميعاً لتهنئتنا

ولما حان وقت عودتنا مع العروس إلى قرية أبى ألبست العروس ثياباً حمراء من مفرق الرأس إلى القدم . وأركبت جواد أبيها وسار حولها إخوتها وأعمامها ووضعوا فى يدها طرفاً من حبل أمسكت أنا بطرفه الآخر وأنا على جوادى وفقاً للعادة حتى وصلنا إلى الكنيسة

وصحب الموكب كل من له علاقة به من قريب أو صهر أو صديق وكان بعضهم مشاة والبعض على ظهور الخيل وكانوا يهتفون ساعة ويغنون ساعة

وكان عمى يقود هذا الموكب . ولما وصلنا إلى القرية وجدنا فرقة من الجنود الروسية فى انتظارنا كما أمرها الضابط المتولى قيادتها وهو صديق الذى رافقنى فى الموكب ومشت أمامنا هذه الفرقة إلى الكنيسة فزادت موكبنا جلالاً وهيبة .

وكنت والعروس لا نزال ممسكين بطرف الحبل حتى بعد أن ترجلنا عن الجوادين . وألقى علينا الأصدقاء الزهور والورد .

ثم ، وقفت أمام مريم ووضعت يدها فى يدى وفتحت الكتاب المقدس فجعل بين رأسى ورأسها ثم جاء القسيس وسألها وسألنى هل يريد كل منا أن يتزوج من الآخر ، فأجبنا إجابة القبول ثم أخذ القسيس يرتل وأقيمت صلاة العرس .

ولما انتهت هذه الصلاة علا الهتاف والانشاد ودقت الطبول وصدحت الموسيقى . وكان ضوء النهار فى هذه الساعة قد تلاشى وبدأت العاصفة

التي كانت منذ الصباح تنذر بالهبوب فتساقطت الأمطار الغزيرة وهبت الرياح الهوجاء وأرعد الرعد وأبرق البرق، ومن أجل ذلك انتهت سريعاً الحفلة التي أقامها أبي للضيوف . وبعد انصرافهم قابلت العروس فكنت بهذه المقابلة أسعد إنسان في الوجود

لست أعرف هل تحب أن أقف عند هذا الحد من قصتي المزعجة الرهيبة أم تريد أن تسمع ما حل بنا بعد ذلك من النكبات .

أريد قبل كل شيء أن تعلم أن عروسي كانت جميلة مشرقة مثل كوكب الصبح طاهرة، بريئة مثل الملائكة ، وكانت تحبني أخلص حب وأنقاه؛ وأظنك تقدر موقفي في هذه الساعة بعد إذ علمت أنني كنت شديد القلق من تأخر يوم الزواج ، وبعد إذ علمت مقدار حبي لها ورغبتي في التزوج منها ، وبعد اعتباري هذه الليلة أسعد ليلة في الحياة

ولكي تفهم حقيقة الحال يجب أن تعرف أولا أن البيوت في القوزاق وفي هذا الجزء من البلاد الأرمنية يجعل جزء منها تحت الأرض لأنه ينحت في بطنها نحتاً بحيث أن السائرين في الطرقات يعرفون أن تحت الطبقة الأرضية التي يمشون فوقها غرفاً من البيوت القائمة على الجانبين . وفي هذه الغرف يقيم أهل تلك البيوت . وكانت غرفتي في بيت أبي إحدى تلك الغرف الأرضية وبها كوة على الطريق تصلح بابا وتقوم مقام النافذة .

وكان من عادات الأرمنيين أن يدخل الزوج غرفته قبل عروسه وتتولى العروس نزع حذائيه وجوربيه ثم تطفئ النور قبل أن تنزع نقابها

وفي هذه اللحظة كانت الرعود تهزم في السماء وتحدث أصواتاً مخيفة مزعجة، وكان الشتاء يتدفق. وسمعنا أصواتاً عنيفة وضجيجاً فحسبنا ذلك من هزيم الرعد . ولكننا عرفنا بعد قليل أنها أصوات آدمية وسمعنا وقع حوافر الخيل تعدو في الطريق

وكانت الكوة مسدودة سداً محكماً خوفاً من المطر ولم أجسر على فتحها خوفاً من تسرب الماء إلى الغرف ولكن سرعان ما سمعنا وقوع شيء ثقيل فوق سقف الغرفة ووجدنا جانباً منه يسقط بجانب الفراش ورأينا نور السماء يتخلل الغرفة فصحت بزوجتي: إن هذه صاعقة. وأمرتها بالفرار من الغرفة لتنجو ، ولكن قبل انقضاء لحظة واحدة حدث انفجار في الغرفة فذهلت وحسبت أنني نقلت إلى الجحيم ووقعت على الأرض في حالة إغماء ، وكل الذي أذكره عن تلك اللحظة أنني رأيت نوراً يتفجر وشممت رائحة كبريتية ثم ساد سكوت عميق

لا أعرف كم انقضى وأنا غائب عن الحس؛ ولما عاد إلى الشعور عاد بالتدريج . ولما تنبهت وجدت أنني لم أصب بجرح أو كسر وراجعت ذاكرتي في الحوادث الغريبة فذكرت زواجي كأنه حلم رأيته في النوم أو قصة سمعتها ، وأصغيت فسمعت حركة عظيمة اختلط فيها الأنين بأصوات المفرقعات وصليل السلاح بالأصوات التي تحدث من تهدم المنازل . ولم أزل أحسب نفسي في عالم آخر حتى ذكرني بالحقيقة صوت امرأة تصرخ وكان هذا الصوت هو صوت مريم وقمت لأري مصدر الصوت فوجدت تراباً كثيراً وقطعاً صغيرة من الأحجار ملقاة فوق جسمي فنفضتها وقمت فرأيت في الطريق منظراً لا أستطيع وصفه لهوله

وجدت رجلا فارسياً يجري وفي يمينه سيف مجرد مخضب بالدم وفي يساره رأس مقطوعة ، وكان

بنير الظلام بين لحظة ولحظة وميض البرق وتمكنت بواسطته من رؤية ما يجرى فى الطريق من مطاردة الجنود العارسية لجنود الروس ومن كان يؤويهم من الأرمن

ولم أعرف كيف ولا أين أبحث عن زوجتى وكنت لا أزال أسمع بكاءها، وعرت جسمي رعشة لما خفت أن يكون أنينها هو أنين الاحتضار، وبالرغم من أننى كنت فى ثياب النوم فقد خرجت إلى الطريق بحالة أشبه بحالات المجانين فرأيت على وميض البرق فارسيين يجريان ومعهما امرأة فتبعتهما ركضاً لأنى لم أكن أبالى بشىء غير زوجتى

ولما كان اتجاههما ساعة رأيتهما نحو الجبل فقد سرت فى هذا الاتجاه وأنا لا أراهما ؛ وكنت حافياً والأرض كثيرة الأحجار والصخور . وكنت عارياً والبرد شديد والمطر ينهمل ؛ وكنت متعب الجسم من شدة الذعر ، ولكننى لم أزل أجرى على غير هدى حتى رأيت نفسى على قمة الجبل، ثم أدركنى الكلال واشتدت الجراح فلم أعد أستطيع الاستمرار فى الجرى الذى رأيته غير مجد، فجلست باكياً منتحباً ولم أفق حتى سمعت فى الصباح تغريد العصافير وفتحت عينى فرأيت الشمس مسفرة

وقلت فى نفسى : « أين أنا ؟ ومن الذى جاء بى إلى هذا المكان ؟ »

وكان الجو فى ذلك اليوم جميلاً ، وليس بالسماء ما يدل على عاصفة الأمس ، فلم أستطع تعليل الحالة التى كنت فيها إلا بأنها حلم من أحلام الشيطان

لكن إذا كان كل ما رأيته حلماً فأين زوجتى المحبوبة ؟ هل هى لا تزال بالمنزل وهل تركتها فيه وجئت إلى الجبل حافياً بثياب النوم ؟ إذن فلم يبق من الافتراضات التى أعلل نفسى بها غير أننى قد جننت

وعند ذلك فاضت من عينى الدموع التى كانت لا تزال محبوسة ، وقمت أمشى على مهل نحو المنزل ورأيت الفلاحين فى أثناء الطريق مجتمعين ذرافات وهم يتحدثون همساً عما جرى بالأمس والخوف يكاد يقضى عليهم جميعاً . وكان كل منهم ينتظر أن تحل به نكبة من النكبات

أما أنا فلم أكن أنتظر شيئاً منها لاعتقادى أنه لم تبق فى الدنيا نكبة لم تحل بى وأننى لم أجد أحداً من أهلى باقياً على قيد الحياة فلا زوجة لى ولا أب ولا أم ولا إخوة ولا قريب أو صاحب، وأن المنزل الذى أسير نحوه قد أصبح أنقاضاً مهدمة . لكن خيالى كان مغالياً فى تصوير الواقع فانى لم أكد أقترب من المنزل حتى رأيت أمى مقبلة نحوى وعانقتنى وقبلتنى وهى تبكى

ثم لما هدأ روعها وروعى أخبرتنى أن أبى أصيب فى جسمه ورأسه بجراح من انفجار المفرقعات وأن منزلنا قد هدم بعضه خصوصاً غرفة العروس فانه لم يبق بها شىء وأن الضابط الروسى الذى كان ضيفاً لدينا قد خرج عند ما حدث الانفجار الأول فاختطفه جنديان فارسيان وأن أهل منزلنا فيما عدا ذلك لم يصابوا بسوء

قالت ذلك ثم أدخلتنى المنزل فقدمت لى ثوباً من ثياب أبى . وبعد أن عدت أبى عزمت على أن أبدأ فى الحال بالبحث عن زوجتى واقتنعت بأن بعض الجنود الذين هاجموا المدينة قد اختطفوها وأنها لابد أن تكون الآن فى مدينة أربيفان لأنها أقرب سوق للرقيق وأخذت سبنى ومسدسى وبندقيتى

ووضعت فى جيبى بعض النقود الفضية وودعت

فريق منذراً ألا أعود إليها حتى أجد زوجتي

وسافرت بخطى سريعة إلى أريفان سالكا إليها أقصر طريق . وفى أثناء الطريق وجدت فارسين فاستوقفانى وسألانى عن غايتى فلم أتردد فى إخبارهما بالحقيقة علهما يساعدانني على البحث عن زوجتى وقد عرضا على هذه المساعدة ولكن بأخشن لهجة مما دعانى إلى الشك والريبة

وكانا لقسوتهما يضحكان من حزني ويسخران من شدة اهتمامي وأفهمانى أنها إن كانت الآن فى منزل السردار بين الجوارى التى أسرن فان كل جهد أبذله سيذهب سدى

حمدت الله إذ سمح لى هذان الشريدان بالذهاب وحدى فذهبت وكلى أمل فى الله الذى ابتلانى بهذه النكبة أن يجد لى مخرجاً منها أو يلهم قلبى صبراً وسلواناً

ولما اقتربت من المعسكر الذي كنت قد رأيته أثناء ذهابى مع أمى إلى أرنيان علمت أن السردار كان لا يزال فى هذا المعسكر وأنه أرسل رؤوس الروسيين الذين قتلوا فى قريتنا إلى الشاه لأن جلالته لايقتنع بنصر جنوده إلا إذا رأى هذا الدليل المادى

وعلمت أن فى المعسكر حركة تدل على شدة السرور بما فعلوه فى قريتنا كأنما كانوا يظنون أنه ختام للحرب أو أن هجومهم فى الليل على قرية صغيرة بعد موقعة حاسمة . ولكن سرعان ما تغيرت الحال فان هذا المعسكر المنتشى بنشوة السرور قد أعد العدة للتقهقر وجلا عن موقعه فى أقل من ساعتين حيث ظهر الجيش الروسى من جهة الحدود رحل السردار بجيشه إلى أريفان وتبعته إليها

وأنا لا أعلم شيئاً عن مريم ولكنى كنت أعتقد أنها في قصره هناك وكان ذلك القصر مبنياً على صخرة عظيمة تحتها هاوية تفصل بين ذلك القصر وبين مجرى النهر

وكان على هذا النهر جسر وهذا الجسر هو الذى يصل البلاد التركية على أحد الشاطئين بجرجان على الشاطىء الآخر

وكان القسم المخصص للسيدات فى هذا القصر مطلاً على النهر وهو ممتاز عن غيره بما على نوافذه من الحواجز ؛ وكنت لا أشك أن مريم موجودة وراء تلك النوافذ فوقفت على الجسر أنتظر أن تطل فأراها . وكنت أقول فى نفسى : « ماذا أستفيد إن أطلت على ؟ إننى لا أزداد بذلك إلا يأساً وحسرة » وكان مما يشبه المستحيل أن تنجو من هذا السجن أو تبقى على قيد الحياة إذا ألقت بنفسها من إحدى النوافذ المطلة على الهاوية سوى أن تحت نافذة واحدة من تلك النوافذ شجرة يمكن أن تكون وسيلة للفرار

ظللت فى مكانى أنظر إلى النوافذ وأطيل التفكير والتأمل وكنت أخشى أن يرانى أحد فتقع على شبهة فمشيت على أن أعود عند انتهاء النهار

استمرت مراقبتى للنوافذ أسبوعين كاملين ، وفى آخر يوم من هذه المدة رأيت نافذة مفتوحة ، وقد رفع الحاجز الذى عليها ورأيت امرأة تطل منها فاشتبهت فى أنها هى وانقطعت أنفاسى حتى ظهر لى أن التى تطل من النافذة قد عرفتنى ودنوت من المنزل فاذا هى مريم ، وكنت إذ ذاك بالشاطئ الآخر . ولما مدت يديها نحوى لم أفكر فى العواقب بل ألقيت بنفسى فى النهر وسبحت إلى الشاطئ

الذى هى فيه ووقفت على حافة الهاوية تحت النافذة التى تطل منها زوجتى المحبوبة

وتكرر مدها ذراعيها نحوى كأنما كانت تهم بأن تلقى بنفسها من النافذة فأشرت إليها بألا تفعل وكدت أرفع صوتي بتنبيهها إلى ذلك خوفاً عليها

وكان كلانا ينظر إلى الآخر نظرة شوق وقد منعنا الخوف أن نتكلم وأن نعرب عما يجيش فى صدورنا من الشوق

وأخيراً رأيتها على حين فجأة ترفع بقية الحاجز وتفتح المصراع الآخر من النافذة فبقيت فى مكانى أنتظر النهاية ثم رأيتها تلقى بنفسها من النافذة فبهت ولم تقو رجلاى على حملى وشردت نظراتى ودارت عيناى في وجهى ثم رأيت جسمها معلقاً على الشجرة التى تحت هذه النافذة فصعدت على الشجرة مدفوعاً بدافع الغريزة لأنه لم يكن لدى مجال للتفكير . ولو أن حيواناً فى مكانى لما فعل غير ما فعلت ، وبذلك أنقذت أعز مخلوق لدى

ولما أنزلتها عن الشجرة جلست وإياها على جانب حائط مهدم ، وكان كلانا مسلوب القوة ولكنها كانت مثخنة بالجراح من أثر الصدمة التى اصطدمتها بفروع الشجرة . وبالرغم من أنه لم يتكسر شيء من عظامها فقد كانت جراحها بالغة لأن بعض فروع الشجرة قد شق ثيابها وجلدها فى مواضع متعددة وأضعفها ما نزف من دمها ضعفاً شديداً وكانت مفقودة الرشد من الخوف والاعياء

وأخيراً أفاقت ونادت باسمى فكدت فى هذه اللحظة أن أجن من الفرح وعانقتها وقمت أريد الذهاب بها إلى قريتى ولكننى عدت فذكرت أنه لا بد لنا من عبور النهر أو الانتظار إلى الغد حيث يعاد الجسر الذي يرفع فى المساء عادة لمرو السفن . لكنه ما كان فى وسعنا الانتظار حيث كنا . وكذلك رأيت أن نقضى الليل فى أنقاض الكنيسة الأرمنية وهناك أقمنا حتى جئت ووجدتنا .

ولقد كان أملى كبيراً في عطفك ولست أستطيع وصفك بعد الذى وجدته من رأفتك إلا بأنك حامينا ومنقذنا فشكراً لك من القلوب التعسة التى تنتظر عودتنا . ومهما كانت مهمتك والغرض الذي جئت من أجله فانك كبير الرجولة وسندعو لك بالرغم من كوننا على غير دينك دعوة يستجيبها الله الذى يثيب على عمل الخير

« يتبع » عبد اللطيف النشار

مجموعات الرساله

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠	السنة الأولى فى مجلد واحد
٧٠	كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين }